دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

ذاكرة الهـجرة الدولـية بسهل تادلا
نموذج بني عمير كحوض هجروي

يونس معديني
أستاذ التعليم الثانوي وباحث في الهجرة الدولية
جامعة السلطان المولي سليمان
بني ملال – المملكة المغربية

مُلَخّص

على الرغم من غنى مواردها الفلاحية، ظلت منطقة بني عمير مجالاً طاردًا للمهاجرين خاصةً نحو إيطاليا وإسبانيا، وقد شغلت هذه الظاهرة تفكير عدد من سكان المنطقة، وصارت حلمًا يسعى كل واحد إلى تحقيقه لتتحول في ظرف وجيز إلى حوض هجروي مهم على الصعيد الوطني. وقد تحكمت في ذلك مجموعة من العوامل والآليات، منها ما له علاقة بالقرابة الدموية والجغرافية والعلاقات الاجتماعية، ومنها ما هو مرتبط بالشبكة الهجروية (Réseau migratoire) التي وفرها المهاجرون الأوائل بكل من إيطاليا وإسبانيا، حيث ظلت تقدم مجموعة من الخدمات لأبناء المنطقة، هذا بالإضافة إلى الدور الذي لعبته بعض المناطق المجاورة لبني عمير في انتشار ثقافة الهجرة بين الأفراد. وبذلك صارت المنطقة تحتضن ذاكرة هجروية مهمة. تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على العوامل التي تحكمت في إنتاج هذه الظاهرة الاجتماعية غير المسبوقة على صعيد المنطقة، وذلك من خلال الاعتماد على منهج بيوغرافي يقوم على سير حياة المهاجرين Récits de vie للكشف عن الذاكرة الفردية والجماعية المرتبطة بحدث الهجرة بمنطقة بني عمير وقد كشفت الدراسة عن أهمية العلاقات الاجتماعية في انتشار الفعل الهجروي خاصة وأن هذا الحدث تزامن مع ما عرفته المنطقة من تأزم القطاع الفلاحي نتيجة توالي سنوات الجفاف، والنتائج السلبية لسياسة التقويم الهيكلي على القطاع الاجتماعي، الشيء الذي جعل المنطقة تتحول في ظرف وجيز الى حوض هجروي طارد لأبنائها في اتجاه البلدان الأوربية خاصة إيطاليا وإسبانيا.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٢ سبتمبر ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ أكتوبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الهجرة الدولية؛ بني عمير؛ ذاكرة الهجرة؛ شبكة الهجرة؛ حوض هجروي طارد.

معرِّف الوثيقة الرقمي:

DOI 10.21608/KAN.2020.206494

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

يونس معديني. "ذاكرة الهـجرة الدولـية بسهل تادلا: نموذج بني عمير كحوض هجروي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ٢٠٥ – ٢١٦.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: younes.madani32@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَّورية كَان التَّارِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

تعتبر الهجرة الدولية من الظواهر التي أصبح يعرفها عالمنا اليوم: فكل دول العالم صارت تستقبل مهاجرين جدد، وفي الوقت نفسه يغادرها هي الأخرى عدد من سكانها نحو بلدان ودول أخرى. لكن مع وجود فارق كبير: فهناك دول صارت وجهة لعدد مهم من المهاجرين مقابل دول تعرف نزوحا لعدد من سكانها نحو بلدان أخرى، وهذا ما جعل بعض الباحثين من أمثال "أنطوني غدنز"[1] يصفون هذا العصر بـ"عصر الهجرة". فقد تحول هذا العالم وفق التعبير الذي استعمله المشاركون في المؤتمر الثامن للجغرافية إلى قافلة.[2] لقد كانت الهجرة الدولية المغربية إفرازًا للسياق الوطني والدولي، فقد برزت الظاهرة خلال الفترة الكولونيالية أي خلال مرحلة الاستعمار،[3] فحسب بعض الباحثين أدى الاحتلال الفرنسي لعدد من المناطق المغربية إلى نزوح عدد من ساكنتها القروية نحو المراكز الحضرية، وكذلك إلى هجرة عدد من ساكنة المدن نحو الخارج خاصة في اتجاه فرنسا للعمل هناك في الجيش والمناجم أو المصانع.

ضمن هذا السياق الوطني ظهرت مناطق جديدة لانطلاق الهجرة الدولية، حيث لم تعد تيارات الهجرة الدولية مصدرها فقط المناطق الفقيرة اقتصاديًا والمهمشة اجتماعيًا والمتمثلة أساسًا في مناطق الدير والجبل، بل نجد أن هذه التيارات صارت تغذيها كذلك مناطق غنية من الناحية الاقتصادية. وبموازاة مع ذلك، ظهرت بلدان هجرة جديدة صارت تجذب نحوها عددًا من المهاجرين، ونعني هنا كل من إيطاليا وإسبانيا بعدما تحسنت أوضاعهما الاقتصادية. مع هذه الموجة الثانية التي اندمج فيها سهل تادلا حدث تحول نوعي إذ لم نعد نتحدث عن هجرة ذكورية كما كان الشأن بالنسبة للموجة الأولى، بل أصبح النساء يهاجرن لوحدهن بالإضافة إلى فئة الطلبة والموظفين..، مما جعلها تصنف ضمن ما أطلق عليه إعلاميًا بـ"مثلث الموت le Triangle de la mort" أو "مثلث الهجرة"،[4] نظرًا لحجم التيارات الهجروية التي انطلقت منه خلال عقدي الثمانينات والتسعينات. في الوقت الذي تعتبر فيه مثلثا للثروة في المغرب، وهو ما يمثل بالفعل مفارقة لمنطقة غنية اقتصاديا لكنها فقيرة اجتماعيًا. في هذا السياق برزت منطقة "بني عمير"[5] بسهل تادلا كحوض هجروي انطلقت منه تيارات هجروية مهمة، فهذه المنطقة لم تكن منغلقة على نفسها إذ ظلت تربطها علاقات تاريخية بالمناطق المجاورة لها. فبعدما كان هذا المجال يستقطب عددا مهما من المهاجرين الباحثين عن فرص شغل بالقطاع المسقي أصبح حاليًا يغذي تيارات هجروية مهمة نحو الخارج وخاصةً نحو إيطاليا وإسبانيا.

الهدف من الدراسة

ذلك أن "أهمية البحث العلمي تكمن في إثراء العلم بالحقائق والنظريات"[6]. يكتسي هذا البحث أهميته من خلال محاولته الوقوف على خصائص الذاكرة الهجروية سواء في بعدها الفردي أو الجماعي، وكذا ظروف وعوامل تشكلها بمنطقة ظلت تعتبر مختبرا للهجرة على الرغم من تجربتها السقوية المبكرة. فالهدف هو محاولة توثيق الفعل الهجروي بالمنطقة وتحديد الكيفية التي انتشرت بها الهجرة الدولية، وذلك اعتمادًا على منهج بيوغرافي يقوم على سير حياة المهاجرين الأوائل.

توطين مجال الدراسة

في هذا الإطار شمل بحثنا هذا بالدراسة منطقة بني عمير، حيث اعتمدنا في اختيار الدواوير موضوع الدراسة على معيار القرب الجغرافي من منطقة بني مسكين، بهدف معرفة الدور الذي يمكن أن تكون قد لعبته هذه المنطقة في انتقال الفعل الهجروي. وعلى هذا الأساس قمنا باختيار كل من دوار "أولاد امبارك" و"أولاد سالم". كما كان اختيارنا لكل من دوار "أولاد ركيعة" و"أهل امربع" نظرا لبعدهما عن منطقة بني مسكين وكذا الهجرة المبكرة لأفرادها، أما بالنسبة لدوار "أولاد احمد" فقد كان اختياره نظرًا لكون ساكنة الدوار في الأصل قد نزحوا عن موطنهم الأصلي الذي يتواجد على الحدود مع بني مسكين، وذلك بهدف التعرف على مدى استمرارية تأثير الهجرة الدولية بها.

تحديد الإشكالية

كيف تحولت منطقة بني عمير في ظرف وجيز الى حوض هجروي طارد، بالرغم من غنى موادرها الفلاحية؟ وبهدف توضيح الإشكالية المطروحة، لابد من طرح مجموعة من التساؤلات التي ستعيننا على إماطة اللثام عن العناصر الأساسية للإشكال المطروح، وفي هذا الإطار قمنا ببلورة الأسئلة التالية: ما هي الظروف والعوامل التي جعلت من بني عمير منطقة طاردة للمهاجرين؟ كيف انتشرت ظاهرة الهجرة بمنطقة بني عمير؟ وهل ساهم في هذا الانتشار عوامل خارجة عن المنطقة؟

فرضيات البحث

كما هو معلوم في حقل العلوم الاجتماعية فهي تستوجب وضع فرضيات تكون بمثابة تخمين أو استنتاج يصوغه الباحث لشرح ما يلاحظه من حقائق وظواهر، في هذا الصدد قمنا

بصياغة مجموعة من الفرضيات للإجابة عن إشكالية البحث المطروحة والتي يمكن إجمالها فيما يلي:

الفرضية الأولى: شكلت الهجرة الدولية في اتجاه إيطاليا وإسبانيا في السنوات الأخيرة حدثا بارزا بمنطقة بني عمير بشكل خاص وسهل تادلا بشكل عام، وهو حدث انخرط فيه عدد من سكان المنطقة بمختلف أعمارهم.

الفرضية الثانية: تحكمت مجموعة من العوامل والآليات في انتشار الفعل الهجروي بالمنطقة، فقد كان للقرابة الدموية والجغرافية والعلاقات الاجتماعية دور في انتشار ثقافة الهجرة وانتقالها بين الأفراد، وظلت الشبكة الهجروية تعمل على توجيه عدد مهم من المهاجرين نحو كل من إيطاليا وإسبانيا. كما ساهمت بعض المناطق المجاورة لبني عمير في هذا الانتشار.

منهجية البحث

لا شك أن المنهجية المعتمدة في البحث تعتبر من الخطوات المهمة باعتبارها تنير الطريق أمام الباحث وتجنبه التيه والابتعاد عن صميم الموضوع، ذلك أنها لا تقل أهمية عن الجوانب المعرفية. وانطلاقا من هذه المسلمة فقد اعتمدنا المنهجية التالية:

المرحلة الأولى: وجهنا اهتمامنا إلى الإطلاع على النظريات التي اهتمت بالهجرة وكذلك الدراسات السابقة حول الظاهرة، من أجل ضبط مختلف الآليات المتحكمة فيها وذلك حتى نتمكن من جمع أكبر قدر من المعلومات والوقوف على أراء الدارسين و الباحثين وزوايا معالجتهم للموضوع.

المرحلة الثانية: وترتبط هذه المرحلة بالبحث الميداني، وذلك بهدف الاقتراب من واقع الموضوع حيث حاولنا الجمع بين "المنهج الكيفي Méthode Qualitative" والمنهج الكمي Méthode Quantitative نظرًا لأهميتهما في فهم الظاهرة،[٧] من خلال اعتمادنا على **منهجية السير الحياتية" Récits de vie**.[٨] وهي نموذج بحثي يقوم على المنهج البيوغرافي من خلال توظيف منهجية "سير الحياة récits de vie" التي تستهدف إعادة إحياء تجربة الفاعلين. هذا المنهج يعتبر من المناهج النوعية الهامة في العلوم الإنسانية والاجتماعية على حد سواء.

أولاً: سهل تادلة حوض هجروي تطور بشكل مهم خلال العقود الأخيرة

١/١-انطلقت الهجرة الدولية بشكل مبكر من منطقة الجبل والدير بسهل تادلة

اقتصرت الموجة الأولى للمهاجرين بسهل تادلة على المناطق الجبلية ومناطق الدير، حيث كانت بداياتها خلال مرحلة الحماية واستمرت بعد الاستقلال، فقد ظلت وجهتها الرئيسة هي فرنسا نظرًا لحاجتها الملحة إلى اليد العاملة لإعادة بناء اقتصادها بعد الحرب العالمية الثانية.

حيث تميزت بكونها هجرة انتقائية ارتبطت تاريخيًا بالفرنسي فيليكس مورا Félix Mora الذي كان يسهر على تدبيرها، وهي هجرة منظمة من طرف الحكومة الفرنسية عن طريق عقود العمل ومن بين هذه المناطق التي شملتها الموجة الأولى من الهجرة، نذكر "القصيبة" التي كان حاكمها ويدعى "سعيد واسو" على معرفة شخصية بهذا الضابط الفرنسي.

لقد كانت الهجرة بمنطقة الدير والجبل (نموذج القصيبة) تتم وفق مجموعة من المعايير في انتقاء الأشخاص الذين يتوفرن على مؤهلات جسمانية تجعل الشخص قادرا على القيام ببعض الأعمال الشاقة مثل قطع الأشجار بالغابات الفرنسية. على هذا الأساس توجه المهاجرون الأوائل نحو فرنسا بعدما تمكنوا من الحصول على عقد عمل، لتتوسع دائرة الهجرة بعد التحاق مهاجرين آخرين عن طريق شراء عقود للعمل ومنهم من أبرموا عقد زواج مصلحة مع إحدى الفرنسيات للحصول على أوراق الإقامة. إن ما يميز الموجة الأولى من المهاجرين هو انطلاقها من مناطق فقيرة اقتصاديا، تتميز بظروف طبيعية قاسية وتعاني من التهميش الاجتماعي. وهذا عكس الظروف السوسيواقتصادية للموجة الثانية. كما ظلت الهجرة إلى أوربا (نموذج فرنسا) خلال الموجة الأولى (فترة الستينيات) ينظر إليها في غالب الأحيان بشكل سلبي ويتم تمثل فاعليها على أنهم فاشلين اجتماعيًا ومعرضون للتنصير دينيًا وعدم شرعية الأموال التي يتم جنيها ببلاد النصارى.

٢/١-ظلت منطقة بني عمير في منأى عن الهجرة الدولية المنظمة

لم تندمج منطقة بني عمير ضمن الهجرة الدولية المنظمة التي عرفتها مناطق الدير والجبل، ويعزى ذلك إلى جملة من الاعتبارات تتمثل أساسًا في الأهمية الاقتصادية للسهل على المستوى الوطني نظرًا للتجربة السقوية المبكرة التي عرفها، فقد شكل النشاط الفلاحي العصري وبعض الوحدات الصناعفلاحية والإدارية بنى تحتية ساهمت في تأخر هذا الاندماج. ففي بداية القرن العشرين عرفت منطقة بني عمير مجموعة من التحولات الفلاحية، والتي انطلق مسلسلها بإدخال السقي العصري مما ساهم في الانتقال من بنيات فلاحية ما

قبل رأسمالية تعتمد على الزراعة الموسمية والرعي الواسع إلى بنيات فلاحية رأسمالية ترتكز على نظام كثيف في الزراعة وتربية الماشية[٩] وكنتيجة لعملية السقي فقد ارتفع ثمن الأرض ليبلغ ثمن الهكتار المسقي العالي الجودة حوالي ١٨ مليون سم، بينما لا يتعدى ثمن الهكتار البوري ٤ ملايين سم، كما ارتفع الإنتاج وتعددت أنواع المحاصيل الزراعية مما خلق فرص مهمة للعمل.[١٠]

٣/١-انخرطت منطقة بني عمير ضمن الموجة الثانية من الهجرة الدولية مع بداية الثمانينيات

على الرغم من أن منطقة بني عمير تشكل نموذج لمناطق السهل التي عرفت تجربة سقوية مبكرة فانها تحولت إلى حوض هجروي، وهو ما أشار اليه أحد الدارسين، فالسهل الغني بتجهيزاته الهيدروفلاحية يأبى إلا أن ينخرط في تيار الهجرة الدولية التي مست% ٢٠ من أسره أي ١٢٠٠٠ مهاجرًا دوليًا ليعاكس أطروحة ارتباط الهجرة الدولية بالنطاقات الفقيرة وغير المجهزة، فما هي خصائص هذه الهجرة؟

عرفت منطقة بني عمير خلال أواسط الثمانينيات من القرن العشرين هجرة مهمة، شكلت كل من إيطاليا وإسبانيا وجهتها الرئيسة وهي هجرة اتخذت شكلاً غير منظم عكس ما شهدته منطقة الجبل والدير. فمن خلال البحث الميداني أمكننا الوقوف على التطور الكرونولوجي لهذه الهجرة. يتضح لنا من خلال االبحث أن حوالي ٢٠% من المهاجرين كانوا يتواجدون بالخارج قبل سنة ١٩٧٦، بل أن أحد هؤلاء المهاجرين العميريين الأوائل قد هاجر نحو أوربا سنة ١٩٥٧ (يتعلق الأمر بشخص ينتمي لدوار "أهل امربع" قد تمت هجرته سنة ١٩٥٧، حيث شكل استثناءً منفردًا داخل المجال العميري)، وبذلك فالهجرة الدولية بمنطقة بني عمير قد برزت أهميتها بشكل بارز خلال أواسط الثمانينيات، وإن كانت بوادرها الأولى قبل ذلك كما سبقت الإشارة، غير أنها كانت ضئيلة ولم يكن لها تأثير كبير. **ويمكن الوقوف على خصائص كل مرحلة على الشكل التالي:**

الفترة ما قبل ١٩٧٦

لقد شكلت هذه الفترة البوادر الأولى لانطلاقة للفعل الهجروي بالمنطقة، فعدد المهاجرين إبان هذه المرحلة ضئيل مقارنة بالمراحل اللاحقة، والبعض من هؤلاء المهاجرين هاجر خلال أواسط الستينات، ويمكن القول أن الأمر يتعلق بعدد قليل من الأشخاص الذين كانوا يتعاطون للتجارة بشكل موسمي ولا يتوفرون على بطاقة الإقامة بدول الاستقبال التي ظلت تعتبرهم مهاجرين غير قانونيين على أراضيها نظرا لكونهم دخلوا الأراضي الايطالية بجواز سفر فقط، لكنه ونظرًا لحاجة اقتصادها لليد العاملة فقد كانت تتعامل بنوع من المرونة مع هؤلاء المهاجرين، يقول أحد المستجوبين: "هاجرت إلى إيطاليا سنة ١٩٧٢ (...) وكنا نهاجر فقط بجواز السفر (...) والبلد الذي يتساهل مع وضعيتنا (المهاجر يكون في وضعية غير قانونية عند وصوله لإيطاليا) كما أخبرني أبناء الدوار هو إيطاليا (...) فعلى الرغم من أنني كنت أمر عبر فرنسا فإنني لم أفكر يوما أن أستقر فيها، لأنني لا أعرف عنها أي شيء... كما أن تعاملي الفرنسيين معنا يطبعه العنصرية" (مهاجر ب.ن ٦٠ سنة).

بل إن هذا التعاطف قد يصل أحيانا إلى تقديم المساعدة عكس الممارسات العنصرية التي يواجهونها في بعض البلدان، كما أن المهاجرين الأوائل الذين هاجروا خلال هذه الفترة تأثروا بهجرة المناطق المجاورة، ونعني هنا منطقة "بني مسكين" التي راكمت رصيدًا هجرويًا مهمًا وشكلت شبكة هجروية réseau migratoire مبكرة بإيطاليا.

الفترة (١٩٧٦-١٩٨٥)

وخلال المرحلة الثانية (١٩٧٦-١٩٨٥) بدأ يتزايد عدد المهاجرين في التدفق نحو إيطاليا بشكل، كما أننا نسجل تقارب في وتيرة الهجرة لدى الدواوير التي شملها البحث. ومما ساهم في هذه الهجرة الدور الذي لعبه المهاجرون الأوائل بكل من إيطاليا وإسبانيا بفضل توفر شبكة هجروية réseau migratoire ناهيك عن الظروف المتأزمة التي عرفه القطاع الفلاحي بالمنطقة نتيجة الإجراءات التي طبقتها الدولة في إطار سياسة التقويم الهيكلي لسنة ١٩٨٣ والتي تمثلت في تخفيض الدعم المقدم للفلاحين، وتزامن ذلك مع ما شهده المغرب من توالي سنوات الجفاف مما ساهم في ارتفاع تكاليف الإنتاج بالإضافة إلى ارتفاع حدة البطالة في صفوف الشباب.

الفترة (١٩٨٦-١٩٩٥)

عرفت الهجرة وتيرة أسرع خلال المرحلة الثالثة (١٩٨٦-١٩٩٥) ويعزى ذلك إلى عمليات التسوية القانونية التي بادرتها الحكومة الايطالية وتشجيعها للتجمع العائلي، فمعظم المهاجرين من الجيل الأول قد تمكنوا من التأقلم مع طبيعة الحياة في بلدان الاستقبال ونجحوا في تحقيق نوع من الاستقرار، وهو ما دفع بهم إلى استقدام أفراد عائلتهم بعدما تمكنوا من تسوية وضعيتهم القانونية بكل من إيطاليا وإسبانيا خلال هذه الفترة، كما صرح بذلك العديد من المستجوبين: "حصلت على أوراق الإقامة بإيطاليا سنة ١٩٨٦، ففكرت في اصطحاب ٣ من أبنائي سنة ١٩٨٨ ثم لحقتهم والدتهم سنة ١٩٩٠ وقمت بكراء

شقة والاستقرار بها" (مهاجر ط.م ٦٠سنة). فالمهاجر بعد حصوله على أوراق الإقامة بالمهجر اضطر إلى تغيير ظروف عيشه من خلال استقدام أفراد أسرته وتوفير مسكن يضمن لهم الاستقرار، كما اضطر إلى تغيير وضعيته المهنية من خلال الاشتغال بأعمال قارة وذلك حتى يتمكن من تجديد أوراق إقامته.

الفترة (١٩٩٦-٢٠٠٥)

خلال الفترة (١٩٩٦-٢٠٠٥) بدأ عدد المهاجرين نحو إيطاليا في التراجع ويفسر ذلك بصعوبة العبور إلى الضفة الأخرى، حيث شرعت بلدان الاتحاد الأوربي ومن بينها إيطاليا في تشديد مراقبتها للحدود نتيجة التدفقات الكبيرة للمهاجرين، وبدأت نظرتها تتغير اتجاه هؤلاء بعدما حققت تطورها الاقتصادي، يقول أحد المستجوبين: " فيما قبل كانت الحدود الايطالية مفتوحة لكنه ومع تطبيق نظام التأشيرة أصبح العبور نحو إيطاليا صعبا للغاية (...) فأصبح الحل هو الهجرة السرية "الحريك" (...) وإذا أردت الهجرة فيلزمك مبلغ مالي قد يصل إلى ٧٠,٠٠٠ درهم تقدمها لأحد الوسطاء والسماسرة." (مهاجر س.ك).

الفترة ما بعد ٢٠٠٦

وخلال الفترة الأخيرة (ما بعد ٢٠٠٦) تراجع عدد المهاجرين بشكل مهم جد وذلك بفعل الأزمة الاقتصادية لسنة ٢٠٠٨ التي أثرت سلبًا على اقتصاديات بلدان المهجر، حيث بدأت تظهر بوادر هجرة معاكسة ونعني هنا "هجرة العودة"، في انتظار أن تتحسن الأوضاع الاقتصادية بهذه البلدان ليهاجروا إليها مرة أخرى.

ثانيًا: العوامل التي ساهمت في الهجرة الدولية ببني عمير

١/٢-دوافع اقتصادية

كا ينتظر من منطقة بني عمير بعد ادخال السقي أن تصبح مجالاً جاذبًا للهجرة الداخلية من المناطق المجاورة، لكن نجدها عكس ذلك قد أصبحت حوضًا هجرويًا بامتياز. هذه المفارقة يمكن تفسيرها بمجموعة من العوامل في مقدمتها العامل الاقتصادي، فما أصبح يعانيه القطاع الفلاحي من مشاكل مرتبطة بالظروف التي عرفتها المنطقة خلال بداية الثمانينيات خاصة بعدما أصبحت تتناقص فيها وسائل العيش المحلية قد دفع بالعديد من الأفراد إلى التفكير في الهجرة. فالقطاع الفلاحي الذي ظل يشكل قطاعًا أساسيًا بالنسبة لمجال بني عمير قد أصبح يعاني من خلل ستكون له انعكاسات وخيمة على أبناء المنطقة، فقد عرفت تكلفة الإنتاج ارتفاعًا متزايدًا، حيث بلغت تكلفة الهكتار الواحد من الأرض حوالي ١١٠٠٠ درهم سنة ١٩٩١ نظرًا لارتفاع تكلفة اليد العاملة.[١١] وعلى الرغم من أن ثمن المنتوجات الفلاحصناعية قد عرف ارتفاعًا مهمًا فثمن الكيلوغرام الواحد من القطن ارتفع سنة ١٩٩٣، إلا أن هذا التطور لم يكن يوازي تكاليف الإنتاج لهاته المادة مما جعل هامش الربح ضيقا ولم يتجاوز ٦٧٨ درهم للهكتار سنة ١٩٩١، وأحيانًا تفوق تكلفة الإنتاج الربح.

هذا في الوقت الذي تراجع فيه دعم الدولة للفلاح نتيجة تطبيق المغرب لبرنامج التقويم الهيكلي (PAS 1983) في المجال الفلاحي حيث تم إلغاء الدعم المخصص لبعض المزروعات ولبعض المعدات ووسائل الإنتاج الفلاحي. فبدءا من التسعينات تغيرت سياسة المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي حيث أصبح الفلاح مطالبا بتسديد الديون التي في ذمته قبل فترة الإنتاج، فعلى سبيل المثال فان فاتورة ماء السقي يجب أن تسدد كل ٣ أشهر وهو ما ساهم في ارتفاع تكاليف الإنتاج خاصةً بعدما أصبح الفلاح يقوم باقتناء كل معداته الفلاحية دون مساعدة من الدولة، يقول أحد المستجوبين: "(...) في تلك الفترة لم أعد أستطيع الاستمرار في الفلاحة، فقد أصبحت غير معول عليها لضمان مستوى عيش أفضل (...) فالدولة لم تعد تقدم لنا المساعدة (...) كما أنك تظل تشتغل كأجير بأجر قليل..." (مهاجر، ط.م ٦١ سنة).

وقد تزامن هذا الوضع مع ما عرفته المنطقة من توالي سنوات الجفاف حيث تعتبر الفترة الممتدة من سنة ١٩٨٠ إلى غاية ١٩٩٥ من أشد فترات الجفاف الفلاحي التي عرفها المغرب، وهو ما كان له انعكاسات خطيرة على الوضع الفلاحي خاصة بالعالم القروي الذي كان يعاني من التهميش الاجتماعي. كما أن التطور الذي عرفته الفلاحة المسقية بالمنطقة لم يصاحبه احداث وحدات صناعية قادرة على تثمين الانتاج الفلاحي وتحويل مواد فلاحية إلى منتوجات صناعية، بشكل يضمن توفير فرص الشغل لفئة مهمة من الشباب الذي يعاني من البطالة، مما شكل دافعا مهما للهجرة الدولية. وفي هذا الإطار يمكن أن نستدل بمقولة الديمغرافي Alfred Sauvy" إما أن ترحل الثروات حيث يوجد البشر وإما أن يرحل البشر حيث توجد الثروات".[١٢] فالأفراد يتنقلون بحثا عن حياة أفضل. وإلا كيف نفسر التحركات الجماعية للمهاجرين الأفارقة نحو أوربا؟ فقد غدت أوربا مركزًا لهذه الثروات وصارت تغري عددا من مهاجري الدول الفقيرة.

٢/٢-دوافع اجتماعية

عرفت منطقة بني عمير ارتفاع حدة البطالة كنتيجة لتدهور الوضع الاقتصادي والاجتماعي فقد تبين لنا من البحث الميداني أن نسبة مهمة من اليد العاملة كانت تشتغل بالقطاع الفلاحي الذي تأزم نتيجة ارتفاع تكاليف الإنتاج، كما ظلت فئة مهمة من السكان تعاني من البطالة. فما يمكن استنتاجه هو تأزم الظروف الاجتماعية للمهاجرين قبل الهجرة، ويعزى ذلك إلى الأزمة التي أصبح يعرفها القطاع الفلاحي وعجزه عن توفير فرص الشغل لفئة عريضة من شباب المنطقة نتيجة إملاءات المؤسسات المالية الدولية على المغرب في إطار برنامج التقويم الهيكلي، والتي كانت نتائجه كارثية في القطاع الاجتماعي إذ ستساهم في تخفيض فرص الشغل. حيث اضطر العديد من شباب المنطقة بسبب تأزم الوضع الاجتماعي إلى الهجرة كوسيلة لتحسين ظروفهم المادية، نظرًا لما تتيحه دول الاستقبال من إمكانات لتحقيق ذلك، وبذلك يصبح المهاجر مدركا للمنفعة التي سيحققها من مشروعه الهجروي إذا ما أقبل على تنفيذه وهو ما يحيلنا على نموذج الفرص أو الإمكانات الوسيطة ضمن النظرية الاقتصادية.

كما أن العديد من المهاجرين يعتبرون العزلة التي تعانيها مناطقهم القروية دافعًا للتفكير في الهجرة، فمن جهة هناك قلة فرص الشغل ومن جهة أخرى فالدولة لم تتدخل لدعم القطاع الفلاحي الذي تأزمت أوضاعه. هذا في الوقت الذي عجزت فيه المدرسة عن أداء الأدوار التي كانت تقوم بها فيما مضى كعامل للارتقاء الاجتماعي فسياسة التقويم الهيكلي كانت نتائجها سلبية على القطاع العمومي، ولعل هذا ما يفسر لنا غياب وضعف البنيات التحتية بالمنطقة خاصة تلك المتعلقة بالتعليم حيث لم تتمكن شريحة مهمة من سكان المنطقة حسب البحث الميداني من الولوج إلى المدرسة، كما أن نسبة مهمة من السكان لم تستطع متابعة دراستها بمختلف أسلاك التعليم.

ومن ثَمَّ فالبنية الثقافية لغالبية سكان المنطقة عامل مفسر للبنية المهنية، كما أنها عامل مشجع لمجموعة من الشباب على اتخاذ قرار الهجرة نحو الخارج من أجل تحسين وضعيتهم الاقتصادية والاجتماعية كما صرح بذلك العديد من المستجوبين. فقد أمكننا البحث الميداني من الوقوف على بعض من الدواوير التي تفتقر للعديد من المرافق التعليمية والبنى التحتية، هذه الظروف شكلت دافعًا قويًا لمغادرة الدوار والبحث عن فرص أفضل في الخارج. وعليه كانت الهجرة هي الحل كما عبر عن ذلك الباحث عبد الرحيم العطري بالقول" تؤشر الهجرة دومًا على نوع من الحراك الاجتماعي داخل المجال، والذي يفترض انتقالا اجتماعيا من فضاء إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى".[١٣]

٣/٢-دوافع ثقافية

ظلت الهجرة الدولية كثقافة متجذرة وراسخة في مجتمع بني عمير، فالهجرة هي ظاهرة إنسانية والمعطى الثقافي يعتبر أحد أهم الدوافع التي تدفع هذه المجموعات إلى الهجرة من مكان إلى آخر. ومن تم يمكن اعتبار الهجرة بمثابة سلوك مكتسب من المحيط الاجتماعي الذي ينشأ فيه الفرد، فغالبية الأسر ببني عمير تمتلك مهاجرا على الأقل بالخارج، أي أن الفرد له مجموعة من الأقارب (أخ، عم، خال...) بالخارج حيث يصير الفعل الهجروي ثقافة ويتحول إلى سلوك، يقول أحد المستجوبين: "(...) بْدِيتْ نْفْكّْرْ نْمْشِي لْطَّالْيَانْ مْلِّي كُنْتْ صْغِيرْ، عْمَامِي وْ خْوَالِي وْ وْلآدْهُمْ كُلُّهُمْ مْشَاوْ حْتَّى الْفْقِيهْ دْيَالْ الدُّوَّارْ مْشَا (...) هْنَا فْالدُّوَّارْ كَتْصِيبْ فْخْدَة كُلْهُمْ فْالطَّالْيَانْ (...) هَادْ الْبْلآدْ دَّاتْ لِينَا الْعْقْلْ ، نْفْكّْرُوا فِيهَا بالِّيلْ وْ النّْهَارْ..."(مهاجر، م.ر٦٩ سنة) (بدأت التفكير في الهجرة منذ الطفولة، فكل أقاربي قد هاجروا ولم يسلم من هذه الهجرة امام مسجد قريتنا... وبصراحة فالخارج قد سلب كل عقولنا نفكر فيه باستمرار).

ومما يؤكد أن الهجرة قد صارت ثقافة ببني عمير هو أن العديد من المهاجرين كانوا ينتمون لأسر ميسورة تمتلك مساحات شاسعة من الأراضي المسقية، حيث لم تعد مقتصرة على الأسر الفقيرة. هذه الثقافة قد تتحول إلى مرض كما أشار إلى ذلك أحد الباحثين" هكذا تتجدر هاته العدوى في مناطق الانطلاق لتصبح مرضًا متفشيًا علاجه الوحيد هو الهجرة الدولية ذاتها"[١٤] فيصبح الحل هو الهجرة الدولية ذاتها، ومن ثم تصير الهجرة ظاهرة تغذي نفسها بنفسها.

٤/٢-دوافع نفسية

مارست الهجرة تأثيرًا قويًا على فئات عريضة من شباب المنطقة، حيث ظل هذا الحلم يراود كل فرد فعبارة ""بْغِيتْ نْمْشِي لْطَلاَيْنْ نْجِيبْ فْلُوسْ خْرَايْنْ" (أريد الهجرة نحو إيطاليا للحصول على المال) تتردد باستمرار بل ترسخت في الذاكرة الجماعية للمنطقة. فالزيارات المتكررة للمهاجر وحجم تحويلاته المالية والقيمة التي يحضى بها داخل الأسرة والدوار، كل ذلك يؤجج في نفوس الشباب فكرة الهجرة وتتأكد الفكرة كلما تأزمت الظروف الاقتصادية والاجتماعية، مما يجعل حدث

الهجرة قريبا منه نفسيًا كما أشار إلى ذلك الباحث "أبو العز" في دراسته لمنطقة تادلا.

إذ لم تعد للمسافة الكيلومترية أي معنى أمام المسافة النفسية التي تجعل حدث الهجرة قريبا إلى المهاجر العميري، فتصبح العراقيل والحدود الجغرافية التي تفصله عن الوصول إلى وجهته ولا تشكل بالنسبة إليه أية صعوبة، ولذلك نجده يقطع الأدغال أو يعبر العديد من البلدان في سبيل الوصول إلى إيطاليا.

فحلم الوصول إلى الضفة الأخرى لا يفارق الفرد حيث يشكل هاجسًا نفسيًا بالنسبة له، نتيجة صورة النجاح الاجتماعي التي يجسدها المهاجر خلال زيارته لموطنه الأصلي، والتي تعطي انطباعا لباقي الأفراد على أن المهاجر يعيش في البذخ والثراء ببلدان المهجر،[15] فالمهاجر هو ذلك الشخص الذي يحس بنوع من العنف في موطنه الأصل نتيجة ما يتصوره عن الحياة والعيش بدول المهجر، من خلال ما يراه في حيه ومدينته من أثار الهجرة الخارجية مما يدفعه نحو التفكير في المغامرة. هذه التصورات حول طبيعة الحياة بالخارج سرعان ما تدفعه نحو التقليد الاجتماعي، أي تقليد أفراد من محيطه الاجتماعي نجحوا في الهجرة، فالتقليد هنا هو إعادة إنتاج السلوك الذي شكله شخص أخر.

وعليه فإن ظهور الهجرة الدولية بمنطقة بني عمير هو نتاج لهذه العوامل مجتمعة، فهي ظاهرة معقدة يتداخل فيها ما هو اقتصادي واجتماعي وثقافي ونفسي، ولا يمكن النظر إليها من زاوية واحدة بل المطلوب دراستها من زوايا متعددة وفق رؤية شمولية. وعلى الرغم من ذلك تبقى نظريو أرنست رافينستين Arneste Raffinistine في تفسير الهجرة على أساس اقتصادي سنة ١٨٨٥ في مقال له بعنوان "قوانين الهجرة" من أهم النظريات المفسرة للفعل الهجروي،[16] حيث خلص إلى أن فعل الهجرة محكوم بعوامل الدفع والجذب، فالظروف الاقتصادية المتأزمة والفقر تدفع كل فرد إلى التفكير في الهجرة نحو مناطق خارج بلده أكثر جاذبية وتتوفر فيها ظروف اقتصادية أفضل مقارنة مع مناطق الانطلاق.

ثالثًا: عوامل وآليات انتقال الفعل الهجروي ببني عمير

لقد تفننت أدبيات الهجرة بوصف المنطقة على أنها حوض هجروي مهم، من هذا المنطلق سيكون من اللازم تحديد الكيفية التي جعلت من هذا المجال حوضًا هجرويًا، وذلك من خلال الوقوف على آليات انتقال الفعل الهجروي. حيث لعبت الشبكات الهجروية وما ارتبط بها من قرابة جغرافية ودموية دورًا مهمًا في انتشار الفعل الهجروي، كما كان للقرب الجغرافي لبني عمير من منطقة بني مسكين دور لا يقل أهمية عن سابقه في انتقال الهجرة.

١/٣-دور الشبكة الهجروية في انتشار الهجرة الدولية داخل منطقة بني عمير

تُعَدّ الشبكة الهجروية Réseau migratoire بمثابة الوسيلة التي من خلالها استطاع عدد من المهاجرين الوصول إلى بلدان الاستقبال، فهي تمارس تأثيرها على المرشح الجديد للهجرة إذ قبل هجرته فهو يحتاج إلى ما يضمن نجاح مشروعه الهجروي ببلد الاستقبال وبعد وصوله يحتاج إلى من يوجهه ويساعده. هذا الدور موكول للمهاجرين الأوائل الذين شكلوا شبكة هجروية في كل من إيطاليا وإسبانيا، فمن أجل ضمان تعلقهم واستمرارية علاقتهم بالموطن الأصلي يعمدون إلى تأسيس مجتمع قروي مصغر يستجيب لنفس القواعد والتنظيم للموطن الأم مما يضمن الارتباط الوثيق به. وهو ما شجع على هجرة العديد من المهاجرين، يقول بعض المستجوبين: "(...) هاجرت إلى إيطاليا لأن بها ما يمكن إن يساعدني فأبناء الدوار وبعضا من أفراد العائلة يتواجدون بها (...) كما تعلم لا بد من شخص يجب أن تلجأ اليه عند وصولك (...) وأن يساعدك في السكن والعمل، لهذا قررت أن أهاجر..." (مهاجر، س.أ. ٧٥ سنة).

فقد لعبت الشبكة الهجرية دورًا مهمًا في احتضان المهاجر الجديد ببلد الوصول، ذلك أن حوالي ثلاثة أرباع من المهاجرين الذين شملهم البحث الميداني قد استفادوا من خدمات مهاجرين آخرين، وهو ما يشكل دليلا قويا على العلاقات الاجتماعية ومدى دورها في انتقال الفعل الهجروي ببني عمير. فالقرابة الدموية بين المهاجرين والمرشحين للهجرة لعبت دورا مهما في انتشار الفعل الهجروي وانتقاله بين أبناء المنطقة. فمن المؤكد أن الهجرة بالمنطقة لعبت فيها العلاقات الاجتماعية دورًا أساسيًا، فالمهاجر يظل مرتبطا بموطنه الأصلي بحكم أواصر القرابة الدموية القريبة والبعيدة التي تربطه بالدوار، فخلال زياراته المتكررة يعمل على اصطحاب أحد أفراد أسرته أو من تربطهم به قرابة دموية أو انتماء جغرافي، كما يوفر لهم مجموعة من الخدمات والمساعدة ببلد المهجر فتتسع دائرة الهجرة بالمنطقة وتتطور الشبكة الهجروية.

(I/٣) ١-المستوى الأسري ضمن الشبكة الهجروية:

تلعب الأسرة دورًا مهمًا في توجيه المشروع الهجروي للأفراد المقبلين على الهجرة وحتى في انتقال الفعل الهجروي بينهم، ففكرة الهجرة تكون أقرب إلى ذهن الفرد وتمارس عليه ضغطا يوميا كلما توفر في أسرته مهاجرون، بل تزيد من احتمال الهجرة وتوجيهها نحو وجهة معينة دون أخرى، "فالأسرة تعبر عن أهمية الروابط التي تربط بين مناطق الانطلاق والاستقبال" كما تمثل استمرارية لهذه العلاقات. من هنا يمكن القول إن الأسرة ظلت تلعب دورًا أساسيًا في هجرة أحد أفرادها فالمهاجر، منذ وصوله يظل على اتصال بمحيطه وأسرته، هذه الأخيرة تظل تبحث عن المعارف أو ما يمكن تسميته بشبكة ثقة réseau de confiance التي يمكن أن يعتمد عليها هذا الفرد سواء أثناء سفره أو عند وصوله إلى بلد المهجر. في هذا الإطار اعتبر Laurent Faret أن المستوى الأسري ضمن الشبكة الهجروية ذو أهمية كبرى في تسهيل قدوم المهاجرين ببلدان الوصول حيث تصير الهجرة بمثابة استراتيجية أسرية، تسعى من خلالها الأسر إلى تقديم مجموعة من الخدمات التي تدفع بالمهاجر نحو وجهة رئيسية دون أخرى.

لقد تحكمت الروابط الاجتماعية في هجرة أبناء المنطقة نحو الخارج، ذلك أن الأسرة التي يهاجر أحد أفرادها سرعان ما تشهد أيضا هجرة أفراد آخرين مقارنة بالأسرة التي لا تملك مهاجرًا فتنتقل بذلك عدوى الهجرة، فقد ظلت القرابة الدموية حاضرة بقوة في انتقال الفعل الهجروي، فالأب يصطحب أبناءه والابن يحاول الالتحاق بوالده والأخ يعمل على مساعدة أحد إخوته على الهجرة. حيث تتوفر عوامل انتشار وانتقال الفعل الهجروي بالنسبة للأسرة الأولى، وهو ما اتضح لنا خلال البحث الميداني إذ أمكننا الوقوف على تيارات هجروية متعاقبة. هذه التيارات الهجروية سوف تعمل على توسيع دائرة الهجرة لتشمل الأقارب والأصدقاء وأبناء الدوار من قريب أو بعيد، وبذلك تصير الهجرة ظاهرة تغذي نفسها بنفسها لتجعل من بني عمير مجالاً هجرويًا.

حيث تظل المؤسسة الأسرية كما أوضحت الباحثة "سارة هاربيزون"، بشأن اتخاذ قرار الهجرة حافزا جوهريا في قرار الهجرة، هجرة فالأشخاص يتنقلون حيث يوجد بعض أفراد عائلتهم (أخ، عم، خال...) مما يوفر لهم الدعم المادي والنفسي. مما يساهم في التقليل من مخاطر وتكاليف المشروع الهجروي ويضمن نجاحه. ومن ثَمَّ تحولت الهجرة إلى نوع من الاستثمار تتأكد فاعليته من خلال الزيارات المتكررة للمهاجرين وتحويلاتهم المالية. وهو ما يحيلنا على نموذج الربح ناقص الكلفة الذي أسس له Sjaastad، حيث تدرك الأسرة أن المنفعة التي ستحصل عليها من هجرة أبنائها تفوق بكثير التكاليف المترتبة عنها، وهو ما عبر عنه أحد الباحثين بـ "عودة الاستثمار".

(I/٣) ٢-المستوى العائلي ضمن الشبكة الهجروية:

تتوسع دائرة الهجرة لتتعدى المستوى الأسري ضمن الشبكة الهجروية، حيث تساهم القرابة الدموية والروابط العائلية في انتشار الفعل الهجروي، هذه الروابط سواء كانت موروثة أو مستحدثة نتيجة المصاهرة بين الأفراد تعتبر من الأليات التي تساهم في انتشار الهجرة، حيث لا يتردد أبناء العمومة في مساعدة بعضهم البعض من أجل الهجرة نحو الخارج. فقد أمكننا البحث الميداني من الوقوف على عدد مهم من المهاجرين الذين هاجروا نحو إيطاليا وإسبانيا بفعل مساعدة أحد أقاربهم سواء أثناء السفر أو عند الوصول إلى بلد المهجر، حيث صرح العديد منهم على دور أفراد العائلة الذين هاجروا مبكرا في توجيه هجرتهم نحو كل من إيطاليا وإسبانيا. فشبكة الهجرة تسهل إقامة المهاجر الجديد[IV] باعتباره وافدًا لا دراية له بالعالم الذي يستقبله، حيث يتم توجيهه وتقديم المساعدة له من طرف مهاجرين من أفراد عائلته، يصرح بعض المستجوبين: "مْلِّي وْصْلْتْ لْطَّالْيَانْ مَكْنْتْ كَنْعْرْفْ وَالُو، دْخْلْتْ لْعَالَمْ غْرِيبْ عْلِّيَّا(...) وْلَادْ عْمِّي هْزُّونِي (قدموا لي المساعدة)، وْوَرَّوْنِي كِيفَاشْ نْبِيعْ وْ نْشْرِي فالطَّالْيَانْ (...) الْمُهِمْ بْقِيتْ ١٥ يُومْ (...) وْ مْنْ بْعْدْ وْلِّيتْ كَنْجِيبْ السِّلْعَة بُوحْدِي..."(مهاجر م أ ٥٦ سنة) (عندما وصلت الى إيطاليا لم أكن أعرف أي شيء، غير أن أبناء عمي قدموا لي يد المساعدة وساعدوني في ممارسة التجارة وبعدها بدأت أعتمد على نفسي). ومن ثَمَّ فالروابط العائلية (أخ، عم، خال، ابن العم...) ساهمت بدورها في هجرة عدد مهم من الأفراد من خلال الخدمات التي يقدمها المهاجرون لأبناء عمومتهم سواء خلال السفر أو بعد الوصول إلى الخارج. وعليه تشكل هذه الروابط رأسمال عالي القيمة له دور مهم في نجاح مشروع الهجرة، كما يعتبر من آليات انتشار هذه الظاهرة.

(I/٣) ٣-يعتبر الانتماء الجغرافي القبلي مستوى مهم ضمن الشبكة الهجروية:

فالدوار يشكل وحدة اجتماعية قوية،[VIII] مما يجعل أبناءه وان لم تربطهم علاقات دموية لا يترددون في تقديم المساعدة لبعضهم، حيث تدخل شبكة الأصدقاء والمعارف ضمن الرأسمال الاجتماعي، الذي يلعب دورا مهما في توسيع دائرة

الهجرة الدولية بين مناطق الانطلاق ومناطق الوصول، كما أن الانتماء المشترك لنفس الدوار أو الفخذة القبلية يجعل العديد من المهاجرين يقدمون المساعدة للأفراد الراغبين في الهجرة.

لقد ساهمت الروابط القبلية والانتماء الجغرافي المشترك في هجرة العديد من الأفراد ببني عمير، حيث توسعت دائرة الهجرة وتطورت الشبكة الهجروية لتشمل الدوار بأسره، إذ لم تعد تقتصر على القرابة الدموية بل تعدت ذلك فأصبح الانتماء إلى موطن واحد يتحكم في توجيهها. وهو ما يفسر لنا أشكال التضامن المتعددة بين المهاجرين بالمهجر بحكم انتمائهم لنفس الدوار ونفس المجال الجغرافي فيقدمون خدمات لمهاجرين لهم نفس الانتماء القبلي. مما يحيلنا عن الحديث آنذاك عن شبكة هجروية على المستوى المحلي وأحيانا تشمل هذه الخدمات مهاجرين من مناطق أخرى خارج بني عمير بحكم الانتماء إلى نفس الإقليم أو الوطن فيصبح للشبكة الهجرية حينئذ مفهوم جهوي أو وطني. هذا التطور الذي عرفته الشبكة الهجروية كان متزامنا مع تطور الهجرة بالمنطقة وانتشارها وهو ما ساهم إلى جانب عوامل أخرى في خلق حدث الهجرة وتحول منطقة بني عمير إلى حوض هجروي بامتياز.

وعمومًا فان هجرة أحد الأفراد يبقى سلوكًا فرديًا في ظاهره ولكن أن تصير مهاجرًا بإيطاليا أو إسبانيا هو صيرورة اجتماعية تلعب فيه الشبكة الأسرية والعائلية دورًا مهمًا، فالفرد ينبغي أن يتوفر على ما أسمته الباحثة "أعراب شادية" بـ المعرفة الهجروية savoir-migrer، ونعني بها مجموع الخبرات والمهارات التي يراكمها المهاجرون من خلال الشبكات الهجروية التي توفر كل الخدمات التي يحتاجها المهاجر الجديد لنجاح مشروع هجرته سواء بمناطق الانطلاق، أو العبور، أو الوصول. ووفق هذا النموذج انتشرت الهجرة الدولية بمنطقة بني عمير.

٣/٢-الزيارات المتكررة للموطن الأصلي تعتبر من عوامل انتشار الهجرة

تشكل تلك الزيارات التي يقوم بها المهاجر إلى مسقط رأسه، فرصة لإظهار مدى نجاح مشروعه الهجروي فأثناء زيارته يعمل على توزيع عدد من الهدايا مثل "بن وعطور وملابس وأجهزة منزلية وكهربائية"، كما يستغل هذه الزيارات ليقدم لأسرته ما ادخره من مال بالمهجر ذلك أن المهاجرين الأوائل يحرصون على تحويل ما جمعوه من مال بشكل عيني (أوراق نقدية) لأسرهم، دون إرساله عن طريق البريد أو المؤسسات البنكية نظرا لعدم انتشارها بما يكفي آنذاك. أضف إلى ذلك أن هذا المهاجر خلال زيارته يصطحب معه وسيلة نقل خاصة مما يشكل مؤشرا على نجاح مشروعه الهجروي ومظهرًا يعكس "الوجاهة الاجتماعية"، ويؤثر على باقي أفراد أسرته وأبناء جيرانه وشباب المنطقة، وهو ما أسماه أحد الباحثين "باستعراض العضلات".[١٩]

هذه السلوكات تعتبر من الآليات المرئية التي تمارس تأثيرًا نفسيًا على الفئات المرشحة للهجرة من خلال الضغط والاستفزاز الذي تمارسه، والذي يؤدي في نهاية المطاف بهذه الفئات إلى الاقتناع بفكرة الهجرة وعمل المستحيل على تنفيذها ومن ثَمَّ انتشار ثقافة الهجرة. وتشكل هذه الزيارات التي يقوم بها المهاجر كل سنة نحو موطنه الأصلي جزءًا من ثقافة الهجرة بالمنطقة، فالبحث الميداني يؤكد هذه الحركية mobilité المستمرة. ومن طبيعة الحال فالمهاجر من خلال هذه السلوكات فإنه يعبر عن مدى نجاح مشروعه الهجروي وتحقيقه لأحلام الشباب، فلا تلبث تترسخ في ذهن كل فرد فكرة الهجرة خاصة أولئك الذين تربطهم قرابة أو معرفة بالمهاجر العائد. إذ سرعان ما يسترجعون في الأذهان ماضي هذا المهاجر لمقارنته بالحاضر، مما يدفع بهم الى التفكير بجدية في إمكانات التحرر من قطران الوطن"، ومن ثَمَّ تصير الهجرة وسيلة للحراك الاجتماعي وللقطيعة مع الماضي. هذه السلوكات تمارس تأثيرها على الفئات المرشحة للهجرة حيث" تؤجج في أعماق الذين انسدت في وجههم الآفاق سؤال الهجرة نحو الضفة الأخرى (...) فعسل الفردوس المفقود يصير مشاهدًا من قبل الجميع، بل إنه يصير محرضًا ومحفزًا".[٢٠]

٣/٣-القرب الجغرافي من بني مسكين ساهم في انتقال الفعل الهجروي نحو بني عمير

بالإضافة إلى العوامل الداخلية ببني عمير والتي تحكمت في انتقال الفعل الهجروي بين مناطقه، فقد ساهمت عوامل خارجة عنه في ترسيخ ثقافة الهجرة بهذا المجال، ونعني هنا التأثير الذي قامت به منطقة "بني مسكين". تعتبر منطقة بني مسكين التي تقع بالجنوب الشرقي لإقليم سطات من المناطق التي هاجر أبناؤها نحو إيطاليا منذ الستينيات واستفادت في ذلك من علاقاتها مع الدار البيضاء والتسهيلات التي حضي بها الأفراد للحصول على جواز السفر، وهو ما جعل هذه المنطقة تراكم رصيدًا هجرويًا مهمًا حيث استطاع المهاجرون الأوائل من إنشاء شبكة هجروية Réseau migratoire نجحت في استقدام مرشحين جدد.

فقد استفاد العديد من المهاجرين من خدمات ووساطة مهاجري منطقة بني مسكن التي راكمت رصيدًا هجرويًا مهمًا، مما مكنهم من إنشاء شبكة هجروية مبكرة بإيطاليا سيكون لها دور كبير في توجيه هجرة بني عمير وتقديم المساعدة اللازمة لهم سواء أثناء الهجر أو عند الوصول. كما ساهم القرب الجغرافي في استقرار العديد من الأفراد من بني مسكين في مناطق بني عمير، مما شكل عاملاً مهمًا في انتقال الفعل الهجروي، فيكفي أن نقف على أحد الدواوير لمعرفة مدى مساهمة هذا العامل في إدخال ثقافة الهجرة، ففي دوار "أولاد ركيعة" مثلاً وجدنا أن أحد المهاجرين الأوائل من "بني مسكين" كان استقراره بالمنطقة منذ مدة في إطار العلاقات الفلاحية ليهاجر إلى إيطاليا رفقة اثنين من أبناء الدور وخلال زياراته المتكررة للدوار كان يصطحب معه أفرادا آخرين مما ساهم في توسيع دائرة الهجرة في المنطقة.

خَاتِمَةٌ

هكذا يتضح لنا بأن بني عمير على الرغم من تجربتها السقوية المهمة، قد أصبحت منطقة لانطلاق عدد من المهاجرين في اتجاه كل من إيطاليا وإسبانيا مما جعل منها حوضًا هجرويًا مهمًا على الصعيد الوطني بدءًا من الثمانينيات. هذا الاندماج في مسلسل الهجرة الدولية مرده إلى الظروف التي عرفتها المنطقة خلال هذه الفترة، والتي تمثلت في تأزم القطاع الفلاحي بسبب النتائج السلبية لبرنامج التقويم الهيكلي على القطاع الفلاحي، وما عرفه المغرب آنذاك من فترات جفاف متعاقبة. هذا الوضع انعكس سلبًا على القطاع الاجتماعي حيث ساهم في الرفع من حدة البطالة، مما دفع بالعديد من شباب المنطقة إلى التفكير في الهجرة خاصةً بعد ظهور دول جديدة تعاملت بنوع من المرونة مع المهاجرين، ونعني هنا كل من إيطاليا وإسبانيا فهذان البلدان قد تحسن نظامهما الاقتصادي وأصبح عاملاً مشجعًا لاستقطاب المهاجرين. فالهجرة عرفت انتشارها الواسع بالمنطقة بفضل تواجد شبكة هجروية مهمة ببلدان الاستقبال نجح في إنشائها المهاجرون الأوائل، حيث لعبت العلاقات الاجتماعية والروابط العائلية والأسرية دورًا مهمًا في انتشار الفعل لهجروي. كما كان لمنطقة بني مسكين دور أساسي في هجرة العديد من الأفراد من بني عمير بحكم علاقة الجوار الجغرافي التي جمعتهم.

التوصيات

انطلاقًا من نتائج هذا البحث يمكن الخروج بالتوصيات التالية:

- ضرورة تثمين الذاكرة الهجروية للمنطقة باعتبارها تشكل رافعة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، فالهجرة قد ساهمت في مجموعة من التحولات المجالية والمجتمعية.
- العمل على إعادة الاعتبار للمهاجر واعتباره قاطرة لتحقيق التنمية المنشودة بالمنطقة وليس فقط مصدر للعملة الصعبة، فالتجارب والخبرات التي حصل عليها العديد من مهاجري بني عمير تفوق قيمتها قيمة العملة الصعبة.
- اعتبار الذاكرة الهجروية للمنطقة بمثابة رأسمال رمزي ينبغي توظيفه في تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وذلك من خلال الالتفات لوضعية المهاجرين ومحاولة التقرب منهم ومعالجة مشاكلهم وكذا توجيههم في الاستثمار بميادين منتجة.

الملاحق

خريطة رقم١

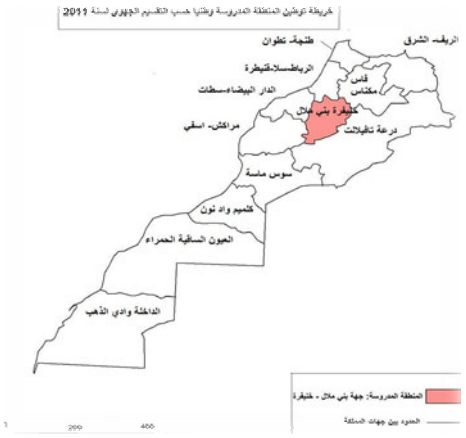

المصدر: عمل شخصي اعتمادًا على خريطة ٢٠١٦

توطين مجال الدراسة على المستوى الجهوي

خريطة رقم ٣

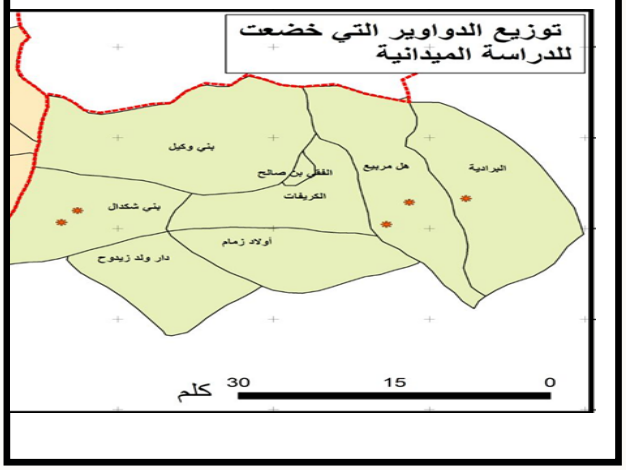

توزيع الدواوير الخاضعة للدراسة الميدانية

خريطة رقم ٢

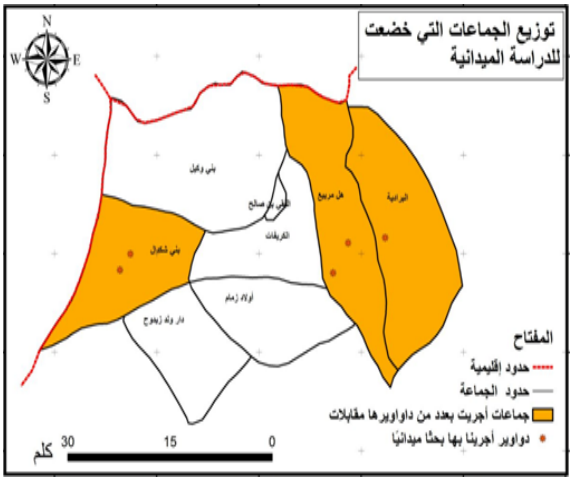

المصدر: عمل شخصي ٢٠١٦

توزيع الجماعات الخاضعة للدراسة الميدانية

الاحـالات المرجعية:

(١) غدنز انتوني، **علم الاجتماع (مع مدخلات عربية)**، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، ط ٤ (بيروت) ٢٠٠١، ترجمة فايز الصايغ، ٢٠٠٦. ص ٦٠.

(٢) أبلال عياد، **الهجرة السرية مقاربة سوسيولوجية**، مطبعة أنفو برانت، ط ١، (فاس)، ٢٠٠٦، ص٢٧.

(٣) أقلال أحمد، **هجرة المغاربة إلى الخارج الدواعي التاريخية والاجتماعية للهجرة المغربية**، مطبوعات أكاديمية المملكة: سلسلة الندوات، ١٢-١٣ مايو ١٩٩٩، مطبعة المعارف الجديدة، (الرباط)، ٢٠٠٠ ص:٥٠.

(٤) بشير حمدوش، **تطور دواعي الهجرة المغربية إلى الخارج**، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة الندوات ١٢-١٣ مايو ١٩٩٩، مطبعة المعارف الجديدة، ا(لرباط)، ٢٠٠٠، ص: ٨٦.

(٥) تقع منطقة بني عمير بين خطي طول (٦,٤٥-٦,٤٠ كلم (غرب خط غرينتش وخطي عرض (٣٦,٢٠-٣٦,١٠) شمال خط الاستواء وترتفع بحوالي ٤٤٠ عن سطح البحر وتنتمي إداريًا إلى دائرة الفقيه بن صالح، كما تمتد على طول النصف الشمالي من الإقليم، ويحدها شمالاً إقليم خريبكة وجنوبًا دائرة بني موسى، وشرقًا إقليم بني ملال، وغربًا إقليم خريبكة وسطات.

(٦) أو ما يُسمى أيضًا بـ "قاعة انتظار الهجرة السرية" نظرًا لحجم الضحايا التي تخلفها هذه الظاهرة، وقد أطلقت على كل من (بني ملال، خريبكة، قلعة السراغنة)، لأول مرة من طرف "خالد جماح"، (رئيس جمعية أسر ضحايا الهجرة السرية AFVIC) بخريبكة.

(٧) توفيق اكومي، "**البحث في الجغرافية البشرية بين مفترق الطرق بين المنهجين الكمي والكيفي**"، مجلة جغرافية المغرب، مجلد ٢٠، السلسلة الجديدة، عددا-٢، سنة ٢٠٠٠، ص:١٧-٢٤.

(٨) مرجع سابق، ص ٢٤.

(٩) مدينة محمد، ١٩٩٢، **بعض مظاهر تكثيف أنظمة تربية الماشية بسهل تادلا**..." ص:٢٤٦.

(١٠) أبو العز، مقال بعنوان "**المقاربة النسقية وشروط التداخل مثال: حقل العلوم الإنسانية، زاوية نظر الجغرافيا الاجتماعية**"، مجلة كلية الآداب بني ملال، عدد ٥، ٢٠٠٢، ص: ٣٢.

(١١) انظر عبد المجيد ازمو، "**التوسع الحضري واستهلاك المجال الفلاحي بسهل تادلة حالات بني ملال والفقيه بن صالح والسبت أولاد النمة**"، أطروحة لنيل الدكتوراه كلية الآداب، بني ملال،٢٠٠٦.

(12) Mohamed Nadif, migration et développement au Maroc; quelle perspectives, AMERME, Communication in Eurropian parliament, 01-03-2005, p :4

(١٣) العطري عبد الرحيم، "**تحولات المغرب القروي: أسئلة التنمية المؤجلة**"، طوب بريس، الرباط، ط ١، ٢٠٠٦، ص:١١٥.

(١٤) منير صالح، "**من الفقيه بن صالح الى ميلانو: الهجرة الدولية المغربية إلى إيطاليا وتأثيرها على مناطق الانطلاق**"، أطروحة لنيل الدكتوراه، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٩٦.ص:٢٩٩.

(15) Khadija Elmadmad, les migrants et leurs droits au Maghreb 2004. p.27.

(١٦) عبد الرحيم العطري، مرجع سابق، ص:١٢٤.

(١٧) أرنست رافينستين، **صحيفة جمعية الإحصاء**، لندن، ١٨٨٥، ص:١٦٧-٢٢٥.

(١٨) الأسعد، ٢٠٠٥، **التحولات المعاصرة للمسكن الريفي**، "التحولات المعاصرة للمسكن الريفي: حالة هضبة بن سليمان"، في كتاب: **دينامية المجالات الفلاحية بالمغرب**، تنسيق: موسى كرزازي، محمد الأسعد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالربط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ١٢١، الرباط، ط١، ص،٥١ ص:٥١.

(١٩) عبد الرحيم العطري، نفسه، ص: ١٢٩.

(٢٠) العطري، نفسه، ص: ١٢٩.